أ د نـــادية عيشـــور
باحثة في علم الاجتماع
جامعة محمد لمين دبّاغين – سطيف 2

ملخص:

تكمن أهمية علم اجتماع التفاؤل في فهم ورصد الدوافع والأسباب والعوامل، المؤثرة على مستوى الدافعية نحو الإنجاز، وعلاقتها بإحراز التقدم المنشود، والقدرة على مقاومة الصعوبات والتحديات، وبلوغ الأهداف والغايات. ومن ثم المساهمة في تحسين جودة ونوعية الحياة في المجتمع، عبر مؤسساته المختلفة، التنشيئية، والاقتصادية والخدماتية والسياسية والأمنية.

من هذا المنطلق نهدف إلى مساءلة عديد قضايا ومسائل متعلقة بجودة الحياة، تميز حقل الممارسة في المجتمع العربي، كما يعرض إلى كيفيات وآليات تحسين نوعية الحياة المهنية في المؤسسات والتنظيمات العربية، لكونها القاعدة التي عليها ينبني صرح التنمية والتقدم المنشود.

الكلمات المفتاحية:

علم اجتماع التفاؤل؛ الصحة المجتمعية؛ التقدم؛ جودة الحياة؛ المؤسسة؛ الحياة المهنية؛ المجتمع العربي.

Sociology of Optimism

Ant its role in improving the professional life quality in Arabic establishments

Abstract:

The significance of the **Sociology of Optimism** is to understand and to intend the reasons and causes affecting the impulsion to realization, and its relationship with development, to be able to face difficulties and challenges, to get purposes and aims, then contributing in improving life quality in societies through its different institutional, economical, services, political and security establishment.

From this point, I want by this interference to treat many affairs and issues related to good quality of life, and defined the exercise in Arabic society. It shows the way and mechanism to improve the quality of professional life in Arabic institutions and organizations, because it’s the groundwork of development wish for.

Key words: Sociology of Optimism, health of society, development, good quality of life, establishment, professional life, Arabic society.

مقدمـــة:

تولدت عن الخبرة الإنسانية، على مدار التاريخ البّشري، عديد نواميس، رصدت قدرة إعمال العقل على تخليق النظام، بل والانصياع إليه والانتظام بموجبه، حيث سيولة الفهم والتجربة في تمام انصهارها، أمّنت للمجتمع الإنساني

سبيله في نضاله من أجل الحصول على السعادة، تلك السّعادة؛ التي ما كان ممكنا الوصول إليها، إلاّ بفعل تجنيد للتفكير الاجتماعي أنماطه وللاتجاهات السلوكية مساراتها، في ضوء نسقية وتراتبية المنظومة القيمية بموجهاتها المسلماتية والبديهية. فما كان للمجتمع أن يستمر، وأن يتدرج مراتب النضج والازدهار؛ لو لا تدفق عيون تلك الطاقة الايجابية، التي تمتع بها رهط من النّاس، والفئات، وحتى المجتمعات؛ تلك التي عكست ما يختلج النّفوس من مستويات التفاؤل، تّجره ما تخيّلته أحلامهم، وما شيّدته آمالهم، وما انتصبت له إراداتهم، وما توجته، في الأخير، انجازاتهم وأعمالهم.

لقد أدرك علماء اجتماع التفاؤل، منذ البداية، أهمية ميزة التفكير الايجابي، التي تنبثق من الخبرات الإيجابية، ودورها في تحقيق أهداف وغايات التقدم والسعادة، التي يروم إليها الجميع، فُرادى وجماعات ومجتمعات وتكتلات دولية، غير أن طبيعة بعض العوامل والمؤثرات، التي لا تمتنع من أن تتدخل، قسرا، لتضيق الخنّاق على أحلام المتفائلين، باستعاضة ما يمكن أن يعكر صّفو تفاؤلهم، ويستحيله إلى حالة من التشاؤم، هي الأخرى تعد الوجه الآخر لطبيعة الحياة.

وإذا كانت سمة البلدان المتقدمة، هي البحث عن أفضل السُبل لحماية حقوق الأجيال القادمة، وكفالة حظوظها من عيش الرفاه والاستمتاع بالثروات والموارد الطبيعية على وجه البسيطة، فإن وجوب التفكير في العالم المتخلف؛ يقتضي أخذ زمام المبادرة في البحث، عن أنجع السبل لضمان القدر المطلوب من الحقوق للجيل الحاضر. وإذا كانت التنمية المستدامة في الغرب قد مرت في تطورها بمراحل؛ اهتدت إلى الاهتمام باحتواء كل أبعاد الإنسان، المادية والنفسية والاجتماعية والروحية، فإن الأولى ببلدان العالم التابع؛ أن يسعوا إلى بناء قاعدة تنموية اقتصادية قوية؛ لا يستقر لها كيان إلاّ ببناء الإنسان الكامل، القادر على التكفل النوعي بالعملية الإنتاجية.[1]

وغني عن البّيان، أنّ هذا الإنسان؛ الذّي يشكل البّنية الأساس في البّناء الاجتماعي، ويشكل استقراره المعول الأساس في استقرار المجتمع، وجودة حياته، كذلك، يشكل انعكاس الصُورة لجودة الحياة في المجتمع ككل، فإنّ كان الأمر كذلك، فما الذّي يمكن أن يعنيه؛ غير التّفاؤل المُكلل بمتتاليات النّجاح وبالانتصار. هذّا الّذي سيكون العضُد الدّاعم لبناء هوية اجتماعية قوية، ومنظومة مواطناتية صامدة، كاملة من حيث شروط اجتماعها، ومجاهدة في سبيل استدامة رخائها.

نروم في المقال الحالي، التّعرف على مفهوم ودور وأهمية **<u>التفاؤل؛</u>** كاتجاه في التفكير ونمط في السّلوك، وكمصدر للطاقة الايجابية، ومولد للدينامية، وكيفية استثمارها في مجال صناعة ما تتوق إليه أنفسنا من رغد العيش، وما تتطلع إليه أفئدتنا من أمن وأمان، واستقرار وهناء. فإن كان هذا على صعيد الأفراد، فإن ما يمكن أن يحققه التفاؤل ويستجلبه للصالح العام، على صعيد المجتمعات، إنما سيكون أعظم شئنا، وأقوى أثرا، وأكثر نفعا، وأطول عمرا "استدامة التقدم الاجتماعي". لذا فإن هالة التفاؤل هذه؛ التي ينبغي أن تفرد جناحيها على مؤسسات المجتمع وتنظيماته، لاسيما في العالم العربي، إذ تعد

1 نادية سعيد عيشور: **التنمية المستدامة وتحديات السيادة الوطنية في العالم العربي، حالة الجزائر**، الطبعة الأولى، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، 2016، ص : 112.

أكثر من اقتضاء وضرورة، فإنها تستدعي التفكير المنطقي، الذي يجعل منها بؤرة الاهتمام، ويأخذها بعين العناية والحسبان، ضمن رؤية إستراتيجية، لإدارة إستراتيجية؛ تسمح بتمكين وتحقيق مرامي وغايات التقدم. ولا نرى أن ثمة تفكيرا علميا ومنهجيا، قد يتطلع وينجح في القيام بهذه المهمة، أكثر من علم اجتماع التفاؤل.

وعليه فإن أهمية علم اجتماع التفاؤل، قد تكمن في فهم ورصد الدوافع والأسباب والعوامل، المؤثرة على مستوى الدافعية نحو الإنجاز، وعلاقتها بإحراز التقدم المنشود، والقدرة على مقاومة الصعوبات والتحديات، وبلوغ الأهداف والغايات. ومن ثم المساهمة في تحسين جودة ونوعية الحياة في المجتمع، وعبر مؤسساته المختلفة، التنشيئية، والاقتصادية والخدماتية والسياسية والأمنية، وهذا يبرز من خلال القدرة على التمكين من تغيير نمطية واتجاهات التفكير، من السلبي إلى نظيره الايجابي، وشحذ الهمم، وتحرّي الآليات والطرائق والمناهج، والمناخ الأنسب لمعالجة المشكلات الاجتماعية، بفضل الاستفادة من تطبيقات النماذج الواعدة الحية، وتّبني براديغمات نابضة بالحياة، وممتلئة بفيض الحماس والأمل والعطاء والتّفاني، والدّاعمة لعمليات البناء الاجتماعي.

أولا- مفهوم علم اجتماع التفاؤل:

لا مرية هاهنا، في إثبات وثوق العلاقة بين التفاؤل، كمظهر سلوكي، وبين المتعة كقيمة كشعور أو كدافع قد تأخذ مسلكها نحو التحول إلى النتيجة، بوصفها " الغاية ". ولهذا نعرض إلى تعريف كل منهما فيما هو آت:

- تعريف **التفاؤل لغة Optimisme :**

الفأل: ضد الطيرة، كأن يسمع المريض يا سالم، أو طالب يا واجد، أو يستعمل في الخير والشر، ج: فؤول وأفؤل. وقد تفاءل به، وتتفال. والإفتئال: افتعال منه. والتفئيل: تفعيل. و لا فأل عليك: لا ضير. ورجل فئل اللحم، ككتف: كثيره. وككتاب: لعبة للصبيان، يخبؤون الشيء في التراب، ثم يقتسمونه، ويقولون: في أيها.[1] وهذا قد يعني أن الفأل، هو حضور مؤشر ما، يولد استجابة ما أو استشعار حدوث أمر مرغوب فيه، أي توقع ما هو حسن ومحمود العواقب، وبهذا يكون التفاؤل، معبرا عن حالة شعورية واعية، يستدمج فيها وجود الأمل بالإحساس بالابتهاج، فيحصل الانعكاس والأثر على السلوك، من حيث زيادة الدافعية، زيادة درجة الإقبال على القيام بأمر أو تحقيق هدف ما.

- **التفاؤل سوسيولوجيا**،

يمكن أن يُعرف التفاؤل **Optimisme** على أنه نقيض التشاؤم **Pessimisme**، وهو عبارة عن حالة شعورية ايجابية، تشغل حيزا من الحلم، يحدوه الأمل في أن يتحقق، عبر العمل، ليروم إلى تحقيق إشباع حاجات بعينها، تشكل الهدف أو الغاية، حيث يترجم في صورة اتجاهات وانجازات، وهذا في ضوء اجتماع عديد عوامل، وتوفر عديد شروط. ومن ناحية أخرى فإن التفاؤل، يعكس صلابة الشخصية ودرجة الثقة بالنفس، كما يترجم مستواه درجة صاحبه من حيث مستوى الطموح لديه، مع ما يتلازم معه من إمكانات متميزة، ومتنوعة، عقلية ونفسية واجتماعية ومادية. وكما يخص التفاؤل على الأفراد، فكذلك

1 مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: **معجم القاموس المحيط**، رتبه ووثقه: خليل مأمون شيحا، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، 2007، ص 972

ينسحب على المجتمعات والدول. وكما يصدق على الأفراد يصدق كذلك على الجماعات والمؤسسات والمجتمعات والحكومات.

- تعرف **المتعة** لغة **Enjoyment**:

ورد في معجم القاموس المحيط حول مفهوم "**المتعة**" ما يلي: متع النهار، كمنع، **متُوعا**: ارتفع قبل الزوال، والضحى: بلغ آخر غايته؛ وهو عند الضحى الأكبر، أو ترجل وبلغ الغاية، وبفلان **متعا**، ويضم: كاذبه، والسّراب: ارتفع، والحبل: اشتد، والنبيذ: اشتدت حمرته، والرجل: جاد وظرُف. **كمتُع**، ككرُم، وبالشيء متعا ومتعة، وبالضم: ذهب به، والماتعُ: الطويل، والجيد من كل شيء، والفاضل المرتفع من الموازين، أو الراجح، والجيد الفتل من الحبال، والشديد الحمرة من النبيذ، ووالد كعب الحبر. **والمتاع**: المنفعة، والسلعة، والأداء، وما تمتعت به من الحوائج، ج: أمتعة، وقوله تعالى: "ابتغاء حّلية" (سورة الرعد: الآية 17)، أي ذهب وفضّة، "أو **متاع**" أي: حديد وصفر ونحاس ورصاص. والمتُّعة، بالضم والكسر: اسم للتمتيع، كالمتاع، وأن تتزوج امرأة تتمتع بها أياما، ثم تُخلي سبيلها، وأن تضم عمرة إلى حجك، وقد تمّتعت واستمتعت، وما يتبلغ به من الزاد، ويكسر فيهما، ج: **متع** كصرد وعنب، وبالضم: الدلو، والسقاء، والرشاء، والزاد القليل، والبلغة، وما يتمتع به من الصيد والطعام، ويكسر في الثلاثة الأخيرة. ومُتعة المرأة: ما وُصلت بع بعد الطلاق، وقد متعها تمتيعا، وأمتعه الله تعالى بكذا: أبقاه وأنشأه إلى أن ينتهي شبابه، كمتعه، وعنه: استغنى، وبماله تمتع، كاستمتع. و**التمتيع**: التطويل والتعمير.[1]

فيما تستند ماري هولمز في تعريف المتعة لغويا إلى قاموس أوكسفورد اللغوي(2006) ، وتختزل مفهوم المتعة في اعتبارها: "وضعية أو إحساس، ناجم عن خبرة أو توقع لما يمكن أن يكون جيدا أو مرغوبا، إنه شعور بالفرح أو الرضا أو الاستمتاع"[2]

- أما **علم اجتماع التفاؤل** **Sociologie de l'optimisme**:

فهو فرع من فروع علم الاجتماع العام، يهتم بدراسة وتشخيص وتحليل وتفسير الظواهر الاجتماعية، من زاوية اتجاهاتها الايجابية الحّية والفذّة، ودورها ووظيفتها وفاعليتها، في إحداث التقدم الاجتماعي وصولا إلى سعادة المجتمع، حيث يتخذ، على غرار بقية الفروع، من التّراث النظري السوسيولوجي، لاسيما الحامل لنزعة "التفاؤل"، سندا تنظيريا لتفسير مختلف ظواهره، كما يلجأ أيضا إلى توظيف المناهج المتداولة في مجال الممارسة والعمل السوسيولوجي، ناهيك عن تقنياتها المنهجية وأدوات البحث العلمي الإحصائية والتكنولوجية. وبالطبع فإن الهدف "الختام" إنما هو تفسير هذه الظواهر والتنبؤ بوقوعها لغرض التحكم فيها والاستفادة منها في المجال التطبيقي والتنموي.

بالعودة إلى التراث السوسيولوجي، نجد أن التناول السوسيولوجي لمفهوم التفاؤل؛ قد ارتبط آليا بما كان يترافق من أحداث ووقائع في الواقع الاجتماعي، خلال مراحل تاريخية معينة عكست مراحل التطور لعلم الاجتماع، لاسيما في أوروبا وأمريكا الشمالية "الغرب" أي محيط نشأة ومرتع التطور. إذ شكلت المرحلة الوضعية، بوصفها أولى مراحل علم الاجتماع، إسقاطا حيويا لنّبرة

---

1 مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: المرجع السابق، ص 1203-1204.

2ورد في ملخص **غيداء الجويسر**. طالبة دكتوراه ببريطانيا، ومراجعة وتدقيق **رولا عادل**، وتم نشره في موقع شبكة ضياء للدراسات والمؤتمرات بتاريخ: 15/01/2017 .

التفاؤل، نتيجة للانبهار بنتائج العلوم الأساسية أو التطبيقية والتجريبية، حيث رافعت مساهمات عدد كبير من الأساتذة "الرّواد الأوائل"، لصالح نبّرة التفاؤل هذه، التّي ما فتئت أن أصبحت منبعا متدفقا لتغذية الطموح الجارف، نحو تقليد واقتفاء أثر العلوم الطبيعية، من خلال استعارة المناهج التجريبية بأدواتها التطبيقية، ومحاولات إخضاع الظواهر الاجتماعية، لمواصفات مخابر البحث للعلوم الطبيعية، حيث تجلى ذلك ضمن توجهات المدرسة التشيئية في علم الاجتماع لصاحبها أيميل دوركايم وابن أخته موس.

غير أن هذه النّبرة المليئة بالحماسة والتفاؤل؛ ما لبثت أن انتكست ومضاتها، وانطفأت شمعتها، بعد الصّدمة المفاجئة التي تلقاها الفكر الاجتماعي عموما، والفكر السوسيولوجي المعاصر خصوصا، عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، وما تلاها من كوارث سّاخنة في مركز الحضارة العصرية الحديثة "أوروبا"، حيث انكفأ العقل على عقبيه، بعدما كان قد حقق انتصارا بازغا، صّيره إلى امتطاء مستوى ما فوق **"المقدس"،** منقطع النظير، ظُن، بعده، أنّ لا كرب على سلام البشرية بعد الآن، وظن أنها نهاية الهمجية البشرية، وأنها نهاية العصبية والسّذاجة والتخلف والجهل والظلم، إنها حتمية التطور في بلوغ ذروته، فما قابل هذا الاعتقاد، إلّا الهرولة، بما سيحققه العقل الجديد، من عظيم منجزات، بشأن تحقيق مساعي التقدم الإنساني والحضاري، عبر ضبط النّفس ومحاصرة أسباب جنوحها وسطوتها وجنونها، من الشهوات والنّزوات والأهواء.

غير أن فظاعة الصّدمة هذه، صّدمة انتكاسة العقل الحديث "الرشيد"، أنجبت خطابا تشاؤميا، حاول ويحاول، إلى غاية اليوم، أي في الفكر السوسيو- ما بعد الحداثي، أن يتبّحر في عمق ما زُّوي وخُفي من جدل، بين ذلك المعطى الواقعي ونظيره الفكري في السوسيولوجيا المعاصرة، إنه خطاب ابستمولوجي يبحث في اشكالات، تحوم كلها حول هوية العقل الأداتي ومآلات العقل النقدي. وإذ برز هذا في آخر أفكار هيغل "فيلسوف التاريخ الوضعي" وكذلك نيتشه وغيرهم، فإن آخر منعطفات كتابات التفاؤل في السوسيولوجيا، كانت قد سُّجلت في ختام أعمال بعض الرّواد مثل إميل دوركايم، ماكس فيبر، جورج زيمل، جورج غورفيتش وغيرهم من بعض المحافظين والنّقديين على السواء مثل- هوركهايمر وأدورنو وهابرماس- من مدرسة فرانكفورت.

ثانيا- العوامل المؤثرة في التفاؤل:

في هذا الصدد تعد "مسألة الحوار، حول أبرز الاتجاهات النظرية والمنهجية المعاصرة لدراسة المشكلات الاجتماعية، هي بذاتها حوارا حول تطور علم الاجتماع بوجه عام، (...) إن تاريخ نشأة علم الاجتماع، بل وآليات تطوره عبر العقود ارتبطت بالمشكلات الاجتماعية السائدة، في كل فترة على حدة، بل وحتمتها طبيعة هذه المشكلات (...) يمكن أن نشير ونرصد إرهاصات فلاسفة الإغريق، وكذا التراث الهائل الذي قدمه العرب، ثم فلاسفة التنوير، وحتى ظهور العلوم الاجتماعية بعامة، وعلم الاجتماع على وجه التحديد، على أنها نتائج مباشرة وغير مباشرة، لتأثير المشكلات الاجتماعية على الإنسان ورؤاه وتفسيراته"[1]

1 شادية علي قناوي، **سوسيولوجيا المشكلات الاجتماعية وأزمة علم الاجتماع المعاصر**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص 127

على الصعيد السوسيولوجي، لاحظنا، فيما أُردف أعلاه، انعكاس المعطى الواقعي على المعطى الفكري، في صياغة الاتجاهات وبناء الأفكار، وحتى حياكة حدود المخيال المجتمعي، حول مختلف القضايا والمسائل، التي تصنف أكثر إثارة في كنف الممارسة اليومية داخل مجتمع ما، خلال مرحلة تاريخية ما، مولدا انطباعا ما في صورة الرأي العام. غير أنه في المقابل، يمكن استنتاج أن أنماط التفكير، وأنماط الاتجاهات هذه، قد تؤثر، كذلك، وبشكل قسري، في تنميط الواقع الاجتماعي.

إذ ليس من العسير بمكان، أن تسهم **العوامل العرقية**، ذات الأساس البيولوجي؛ في رصد صورة نمطية للسلوك العام، تشكل مرآة عاكسة لضمير جمعي عقائدي؛ يضع ويضبط قواعد عمليات التفاعل، ضمن شبكة وخارطة الارتباطات الاجتماعية للمجتمع، لها دوافعها وبواعثها السيكوسوماتية، كما لها مبرراتها وتمظهراتها الثقافية، تلك التي قد تفنى وهي ترزح تحت وطأة التأويلات الذاتية الانحيازية. فيما تعمل عملية التنشئة الاجتماعية، عبر مختلف آلياتها، على توطين وتأصيل نمطية هذه التأويلات عبر منظومة المعاني والدّلالات والقيم، التي تُحدد "للهوية" ملامحها، وتُحقق لها تميزها وتفردها عن غيرها. فهنا لا مراء على الإطلاق، في أن نقف على ما للعوامل البيولوجية الوراثية، من أهمية ودور (حالة الذكاء وطول متوسط العمر لدى اليابانيين والصينيين مثلا)، تماما مثلما للعوامل الإيكولوجية والاقتصادية من عميق أثر (حالة الهدوء والسكينة لدى السّعوديين والماليزيين مثلا في مقابل العدوانية لدى الأفارقة البيض والسُّود مثلا) وهذا على سبيل المثال لا الحصر. هذا دون الاسترسال في تناول دور الأبعاد التي تخلفها بقية العوامل.

وإذا كان لكل علم مفاهيم خاصة، بوصفها المفاتيح لولوج فهم متكامل ومتناسق لجزيئات نماذجه وأفكاره وطروحاته، تحدد هويته وتضبط له محددات لغته، ومسافته عن بقية العلوم؛ فإن ما يحتاجه علم اجتماع التفاؤل، فيما نتصور، هو، كذلك، جملة من المفاهيم، والبديهيات، التي على أساسها يبلور تصوره النموذجي، حيث تترادف على السّجية، مجموعة من المفاهيم والعبارات، التي يمكن أن ترسم حياكتها، لوحة فنية واحدة، لتمنح للرائي صورة متكاملة وواضحة، ولها معنى ودلالة.

- **تعتبر الموهبة، الكفاءة، المهارة، الجودة**، المرونة، القدرة على تأكيد الذات، إثبات الجدارة، أسبابا وعوامل في إحراز التقدير والتكريم الاجتماعي، والّذي، يشكل بدوره، مصدرا لإكساب الأفراد "**الثقة بالنفس**". وهي أساس كل طموح وصمود ونجاح.
- ارتباط مستويات الانجاز في مجال العمل والإنتاج، بمستويات الشعور بالاستمتاع، أي "**المتعة**"، والتي تتطلب بدورها الحصول على " **اللّذة** ". التي قد تصل إلى ذروتها ببلوغ مستوى الانجاز ذروته. مع العلم أن اللذة في مقابل الألم، تنهض فلسفيا على مفهوم " **المصلحة** "، والمصلحة لا يمكن تفريدها وعزلها عن أخويها وهما " **المنفعة** " و" **الشهرة** ".
- **الهوية التنظيمية**، تعد ضرورة مركزية في نجاح أي مؤسسة أو تنظيم صناعي، نموها مرتبط آليا، بتنمية مشاعر الولاء لموضوع الانتماء

"المؤسسة"، ما قد يعني حصول " **الرضـــــا"**، هذا الذّي يقتضي من القائمين عليه، من جهة أولى، الحرص الشديد على توفير أسباب رعاية الهوية التنظيمية لدى العاملين والموظفين، من خلال تجسيد ثقافة الديمقراطية، والشفافية والمساواة والعدالة، وتوسيع المشاركة في اتخاذ القرارات العامة، ووجوب الموازنة بين المصالح الشخصية للعمالي والمصلحة العامة للمؤسسة، وضمان سيولة ومرونة في الاتصال أفقيا وعموديا...الخ، مع توفير الظروف التي تحقق الوقاية الصحية من الإصابة بحوادث العمل، كما تقتضي من جهة العمال المشبّعين بالرضا، المواظبة على العمل لأطول مدة طواعية، والمنافسة الحارة لإحراز مزيد مكاسب ودرجة تقدم للمؤسسة، بالعمل الشّاق والجدّي، والأداء المتميز، المحقق للمنتوج النوعي.

إذن؛ تعرف " **النّــوعية "**[1] بمستوى الجودة للمنتوج أو للخدمة، التي تشبع حاجات المستعملين وتحقق الرضا لديهم. كما تعتبر أيضا من المحددات الأساسية لاختيار المستهلك "المقتصد"، والمشتري" الشركات"، هذا يتوقف على الإنتاج الجيد (الأفضل) والخدمات الأفضل للنوعية، وهذا ليس أمرا يسيرا. لكن وقبل كل شيء فإن «كيف» تنتج النوعية، وهنا نعود إدراجنا إلى «لماذا» فهذه تقتضي النّوعية. وهنا نميز سببين لضرورة الاهتمام بالنوعية:

- تعدد كم المركبات (في إطار المنافسة).
- خطورة النتائج للأخطاء في المنتوج أو الخدمة.

ويسعى التعليم إلى تحقيق هذه المواصفات من خلال الاهتمام بتطوير سيناريو البيداغوجية والتي يجب أن تحترم المعايير الآتية:الحاجة المجتمعية، طبيعة الهدف، عامل الزمن، قيود (ضغوط) المعدات (التجهيزات)، عدد المتربصين، دليل التكوين،الوثائق.

قد نستنتج أن "**التفـــاؤل**" كحالة عقلية شعورية، واتجاه فكري، ومسعى سلوكي، إنما يرتبط ببنية تفاعلات: الكيمياء - الاجتماعية، إذ من الممكن أن تتداخل العوامل البيو- سيكولوجية، على حد تناول سيقموند فرويد، والعوامل الإثنية، على حد تناول هارولد جارفينكل، والعوامل النفس- اجتماعية، على حد تناول هوسيرل وألفريد شوتز، وكذلك العوامل الاجتماعية، على حد تناول دوركايم وموس، ناهيك عن العوامل السياسية وبالطبع العوامل الايديولوجية والاقتصادية، على حد تناول ماكس فيبر وكارل ماركس. في الأخير فإن تضافر جملة هذه العوامل، عبر التنشئة الاجتماعية، هو المسؤول عن تنميط الاتجاهات السائدة، إلى تفاؤلية أو تشاؤمية، بالتزامن والتنميط المترافق للأحداث والوقائع.

ثالثا- علم الاجتماع التفاؤل ودوره في "تحسين نوعية الحياة المهنية":

رغم عمق الأزمة في بنية العلاقة بين الواقع والفكر، كما تجلت في أعمال الكثير من السوسيولوجيين من ذّوي النّبرة التشاؤمية، على حد توصيف ماري هولمز، لاسيما مدرسة فرانكفورت؛ فقد لا نكون مجانبين للصواب، إن قلنا أن

1Vincent plauchu : **Mesure et amélioration des performances industrielles**, office des publications universitaires, tome deux, université pierre Mendès-Grenoble, France, 2006.p : 101-102.

بعض جوانب صلابة التّحاور "وهي الحلقة المفقودة" بين الفكر السوسيولوجي والواقع الغربي، جسّدت، بوضوح، يُعد ملموسية حالة التفاؤل في المنظومة الاقتصادية داخل المجتمعات الرأسمالية. إّذ بدا واضحا، أنّ انّبراء العلماء، من مختلف التّخصصات، نحو التّفتيش المُضنى، والبحث الجدّي عن العوامل الممكن أن تؤثر بقوة في تحسين وضعية العمل، وتنتهي برفع مردودية الإنتاج، وبالتالي زيادة فوائده ومداخيله، كان تجاوبا صريحا وحاجة الشُّركاء الاقتصاديون والاجتماعيون إلى معرفة هكذا حقائق، لتحقيق مستويات أعلى من الربحية والمنفعة والشهرة.

فما كان لتنوع المداخل المعرفية (المدرسة التايلورية والإدارة العلمية، مدرسة التكوين الإداري، مدرسة العلاقات الإنسانية ونظرية صنع القرار)[1]، التي عالجت الظاهرة، وكذا تباين مناهجها وأساليبها، ليعرقل جهودها في أن تُثمر بما كانت تأمل وتتوقع، من نتائج، إلّا وهي مجتمعة وقد تكاملت أهدافها، وحققت مبتغاها. فلا عجب في استمرار جهود روادها طالما استمرت حماستهم، وطالما تأصلت متعتهم، وصارت دافعا لكشف ما زُّوي عنهم من جوانب الظاهرة. وهنا وجب التنويه؛ إلى أهمية ودور طبيعة الثقافة المجتمعية، والفلسفة العامة التي هي تأخذ عنها السياسات المختلفة مبادئها وأهدافها، مّما يعني أن يكون للتنشئة الاجتماعية الأكاديمية نصيبا مفروضا، غير قليل، من تكريس ثقافة تقديس العمل، وتثمين إتقانه، وتنمية دُعابة التنافس (بدلا من الصراع المقنع)، والتمكين من مهارات البّقاء والنّجاة والتفوق والاقتدار، والفضول الذّي يقود إلى العبقرية في الانجاز.

على الصعيد المهني للمؤسسات الاقتصادية والخدماتية والسياسية؛ نجد أن ما توصلت إليه كل هذه المدارس عبر مختلف الدراسات، التي عالجت موضوع أثر الظروف المادية والمعنوية على مستوى الأداء، ثم تواليا، أثرها على مستوى مردودية الإنتاج، حيث أن توفر الظروف الفيزيقية الجيدة للعمل، من آلات ومكننة حديثة، وأجور مناسبة ومغرية، وعلاوات وترقيات، وتوفر وسائل الراحة، كمطعم ومقهى وطب العمل وغيرها، تؤثر في زيادة الإقبال على العمل ومنه رفع منسوب الإنتاج، كذلك، فإن للعوامل المعنوية أهميتها في تحقيق بيئة عمل مواتية، ومنه الاهتمام بتأطير وتنمية الموارد البشرية، وبتجسيد الإدارة الالكترونية والهندرة الإدارية، وتحقيق سهولة الاتصال الصّاعد والنّازل، أفقيا وعموديا، وتوسيع هامش قيم الحرية والعدالة والمساواة والمشاركة في اتخاذ القرارات، وكذلك تعزيز الشفافية والمصداقية وغيرها، فالاهتمام بهذه العوامل مجتمعة، يمكن أن يُلبّي حاجة الفاعلين في المؤسسات والتنظيمات، إلى تشكيل الهوية المؤسساتية والتنظيمية؛ التي تعتبر منبع التأسيس لثقافة مؤسساتية، وتنظيمية صارمة وخصبة، مفعمة بالحماس والوفاء والنّشاط.

أما في العالم العربي؛ فقد تبدو الحياة لُعبة شهية بالنّسبة لأُنّاس؛ قد مُلئت على الدّوام بُطونهم؛ وطُيّبت بالأمن والسّلام دّيارهم، وعُظمت بالرفاهية بُطولاتهم، وحلّيت بالمتعة حركاتهم. فإن صدق هذا التوصيف على ثُّلة من البشر وثُّلة من الدول، لم يكن ليصدق، على القاعدة العريضة من البشر، لأن هذا قد يخالف منطق النُّمو، كأساس يتحكم في جميع حركات النظام الرأسمالي. بّيد أن

1 رابح كعباش: **علم اجتماع التنظيم**، مخبر علم اجتماع الاتصال، جامعة منتوري - قسنطينة، الجزائر، 2006، ص ص 101-141

تطلعات الغالبية الساحقة، في تحويل حياتهم إلى تلك اللعبة الشهية، يبقى تلك الغاية العظيمة المُطوقة بأحلام اليقظة. يقول تعالى في محكم تنزيله: "للإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصّيف، فليّعبدوا ربّ هذا البّيت، الذّي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف"[1].

فالضعيف الضائع؛ يحتاج إلى من يرشده ويستر عليه عورته، والفقير الجائع؛ يحتاج إلى من يسُد جوعته ويطفئ عليه ظمأته، والمفزوع الهارب؛ يحتاج إلى من يُؤمّن روعته ويغدق عليه من رحمته. فالمعيشة والأمان، هما أساس لأي حركة في الوجود، قد تترجم فعلا تنمويا، أو سعيا سّياديا، أو حماسا متدفقا، فهما – أي المعيشة والأمان- المفتاح لتدرج أي مكانة وارتقاء في سلم السيادة والرّيادة. فأصل التقدم والثقة والرفاهية، إنما يكمن في تحقيق الأمن الغذائي والأمن العسكري على حد سواء، بهاذين المعولين، نتصور أن كل الأمور ستكون بألف خير، والسّراب يستحيل إلى سلام، والضعف إلى قوة، والسلبية إلى ايجابية.

وبالنزول إلى العالم العربي ككل؛ حيث واقع الثقافة العربية والفلسفة العامة للحياة، والمتشربة ضمن سياسات القطاعات كلها، وحيث الأزمات الاقتصادية والأمنية، قد لا يكون مناسبا الحديث عن علاقة الفكر بالواقع سوسيولوجيا، في ضوء شروخ توصم العلاقة بين القمة وقاعدتها، وبين السياسة الاقتصادية والتعليمية المنتهجة وثقافتها المحلية، فهناك مساحة شاغرة، لا يسعنا فيها إلاّ أن نتناول ظروف الموظف/العامل العربي، الجائع والخائف، فهو جائع لأن مستحقاته المادية لا تفي بحاجات استهلاكه اليومي، وهو خائف لأن الظروف الأمنية والقانونية والإدارية، غير المستقرة في كل مكان وعند كل حين، لا تفي بغرض الاستقرار والهدوء والأمان والثقة، فأنّى له بعد هذا الجوع والخوف، أن يفكر في مزاولة عمل يحقق له المتعة، أو أن يستشعر المتعة في ظل هكذا ظروف؟.

بالطبع قد نكون متشائمين، إذا سحبنا نمطية هذه الصُورة على جميع الموظفين في جميع المؤسسات، وعلى جميع العمال في جميع التنظيمات، وفي كل البلاد العربية، (وإن وجد بعض الاختلاف)، غير أننا بهذا نكون، كسوسيولوجيين، موضوعيين إلى حد كبير، لاسيما حينما نستند إلى الكثير من الدراسات العربية والجزائرية في هذا المجال، والتي عالجت موضوعات عدّة؛ حاولت ربطها بإمكانية تحسين ظروف الانجاز والعمل، كالثقافة التنظيمية، والتغيير التنظيمي، والهوية التنظيمية والاتصال داخل التنظيمات، ودور الإدارة الإلكترونية، وتنمية الموارد البشرية،...وغيرها. حيث انتهت بتأكيد أهمية العوامل المادية الفيزيقية، وأيضا العوامل الإنسانية المعنوية في تحسين مستوى الأداء ومستوى الإنتاجية.

وهنا لابد من الجزم، بأهمية الانسجام بين ثقافة النسق الرسمي للمؤسسات والتنظيمات، من حيث الضوابط القانونية والإدارية، المنظمة لعمليات التفاعل والحراك والأداء الوظيفي والإنتاج والتوزيع والتسويق، وثقافة النسق غير الرسمي داخل هذه المؤسسات والتنظيمات، حيث كُلما ازدادت نسبة

---

1 القرآن الكريم، سورة قريش.

الانسجام والتوافق بينهما، كلما ترتب عنه زيادة في مستوى الهويـة المؤسسـاتية والتنظيميـة، وكلمـا تجسـد هـذا فـي واقـع تعزيـز المشـاركة والتواصـل، ونظـام التحفيزات، وتعزيز بنية الروابـط والعلاقـات والثقـة، وصـولا إلـى تفعيـل عمليـات البناء والتماسـك، مـن حيـث زيـادة درجـة التعـاون والتكامـل والتـآزر والتضـامن، لغرض مستوى الفاعلية في جودة الأداء، ورفع مردودية الإنتاج والفوائد. وبـالطبع فإن مثل هذه الظروف عادة ما تكـون مشـجعة علـى تـدفّق الحمـاس واسـتمتاع الموظفين والمستخدمين والعمال بنتائج أدائهم، رغم حالة اغـتراب "العامـل عـن منتوجه على حد تعبير ماركس".

وبالرجوع إلى واقع المؤسسات والتنظيمات العربية، وبدون مناقشة السّياق الاجتماعي العام، الذي تشغل فيه المؤسسات حيّـزا مـن المكـان والزمـان، فـإن ظروف هذه الأخيرة (القانونية والإدارية والتنظيمية والثقافية) لا تسمح كثيرا برفع منسوب الأداء إلى الحد الأقصى، فالمتوقع أن تبذل جهود الفاعلين في المؤسسة والتنظيم (إداريين، موظفين، وعمـال) فـي سـبيل تجـاوز عوائـق تطـوير التنظيـم والإنتاج، لغرض تحقيق القدر الممكن من الأربـاح، وهنـا وجـب التّنـازل مـن قبـل الجميع لاسيما طبقة العمال، تنازلا قد يشمل انخفاضا في مستوى الأجور، وكذلك بعض الحقوق المعنوية المعروفة، كحق الضمان الاجتماعي، وحـق وقـت الراحـة، والحق في العطل والمناسبات وحق الترقية وغيرها، والسبب في قبول مثل هـذا الوضع، كما ذكرنا أعلاه، إنما هـو حاجـة العمـال للعمـل أي إشـباع حاجـة (الجـوع والخوف).

فـإذا علمنـا، بنـاء علـى نتائـج عديـد دراسـات ميدانيـة (أرشـفت عليهـا كمـا وناقشتها في مستوى الدكتوراه)، أن ثمة فجوة كـبيرة بيـن الثقافـة المؤسسـاتية /التنظيمية الرسمية، من حيث انحـدار قيـم ومبـادئ منظومتهـا القانونيـة وبنودهـا التنظيمية، من قوانين ودساتير دولية أجنبية بالأساس، هذا مـن جهـة، فـي مقابـل سيادة ثقافة النسق غير الرسمي، المسيطرة على بنية شبكة الروابط والعلاقـات للفاعلين القائمين داخل المؤسسة أو التنظيم، والمنبثقة من صميم هوية وأصـالة المجتمـع وخـارطته فـي التفاعـل الاجتمـاعي (الاعتبـارات القرابيـة والجهويـة والمحسوبية والإيديولوجية والعرقية..)، من جهة ثانية، أدركنا حجم المشكلة، التي قد لا تسمح بتكريس ثقافة مؤسساتية/تنظيمية تعزز الاندماج والتكيـف التنظيمـي بيـن جزيئـات متجزئـة، وتولـد روح التنـافس المحقـق للتكامـل والتغييـر المحقـق للسمو الأفضل. كما أن ترميم أو ترقيع بعض الجوانب من الناحية المادية فحسب أو حتى المعنوية فحسب لن يكون بمفرده مجديا.

علم اجتماع التفاؤل والتنشئة الأكاديمية؛

إذن ماذا يمكن أن نقول عن دور علم اجتماع التفـاؤل فـي تحسـين ظـروف العمل بمؤسسات وتنظيمات عربية في الغالب هذه مواصفاتها؟

نتصور أن عمليـة التنشـئة الأكاديميـة؛ المرافقـة لتكـوين النّشـء عـبر جميـع مؤسسات المجتمع وقطاعاته الحيوية، تعد في المرحلـة الحاليـة سياسـة وإجـراء أكثر من ضروري، يفرض نفسه بقوة لاسـيما فـي ظـل الظـروف الآنيـة الصـعبة، التي تمر بها المجتمعات العربيـة ذات المـردود الاقتصـادي الضـعيف، والكفـاءات الضعيفة والهشة (دون تعميم)، والسياسة الفوضوية، والثقافـة المغتربـة. فيكفـي

حالة التشرذم بين قطاع وقطاع داخل البلد الواحد، لابد من صياغة إستراتيجية تأخذ بعين الحسبان، ما يلي:

- **يُعد الالتزامية** في التّصور والسّلوك لدى جميع النخب العربية والوطنية؛ "فلا يوجد مثقف كبير في التاريخ إلّا وكان ملتزما بقضية ما تخدم إنسانية الإنسان، بشكل من الأشكال أو تتعاطف مع آلامه وعذاباته"[1]، فمن المهم أن يتم التركيز والتدقيق، لدى البّاحثين السوسيولوجيين العرب، على معالجة الظواهر الأكثر أولوية بالنسبة للمصلحة العامة للمجتمع العربي، وبطرق أكثر جدية وروح مسؤولية، وتحمل مشقة البحث وصعوباته، أما الهروب إلى حواف الطريق، حيث الماضي العتيد، وامتطاء هامش القضايا، مع اللّجوء إلى لغة التعتيم والغموض والتعميم، فلا ينجر منه، فيما نتصور، سوى الاجترار، ولا يأتي بأي فوائد إجرائية تُسرع بعملية التحسيس ونشر الوعي العلمي في المجتمع. ففي الجزائر على سبيل المثال، فإن أغلب البّاحثون، على غرار القّلة، لم يكونوا لينجزوا أطروحاتهم في الدكتوراه، بعد مضي عشرون عاما، لولا تلك الضوابط القانونية والحوافز المادية تحديدا، والتّي تم ربطها رسميا بالترقية العلمية، وما يمكن أن نراه اليوم، من تهاطل في مجال الإنجازات العلمية، (مقالات ومطبوعات بيداغوجية ومداخلات وتأطير علمي)، فهو يعكس في أغلبه، فحسب، غرض الهرولة نحو الارتقاء في الدرجات العلمية للحصول على امتيازات مادية وأخرى إدارية، وهكذا مقصد من العمل العلمي، يعكس مستوى أدنى من الوعي العلمي، من المحال أن يشفع لأصحابه حينما نأتي إلى تقرير المصلحة العامة للمجتمع الجزائري، فمثل هذه الانجازات الهشة والضعيفة والمجترة والروتينية لن تسهم، ولو بقدر أنملة، في تحقيق التقدم الاجتماعي والسيادة الوطنية، مهما كثرت وتضاعفت أحجامها.

- **يُعد التكاملية للثقافة** بالدرجة الأولى في جميع المؤسسات، ومحاولة تطويرها وتكييفها على نحو يحقق التوافق المتوازن، على صعيد كل قطاع على حدا، وبين جميع القطاعات داخل البلد الواحد. فالإيمان بقوة الثقافة العربية المحلية مطلوب للغاية، وهو معزز بشواهد تاريخية، "فقد قدمت الحضارة العربية الإسلامية للأوروبيين المعارف الأساسية في شتى المجالات...وبناء على ذلك راح علماء أوروبا ومثقفوها يشّيدون حضارتهم الحديثة التي أقلعت لاحقا وسبقتنا بمسافات"[2]، فما كان ممكنا أن ينتفع به هناك، فمن غير المعقول أن لا ينتفع به هنا، ولذا فإن الرّجوع إليها والتفتيش عن مّكامن القوة والعّزة فيها، أضحى الحل الأكيد، والقيام به أمر مستعجل في الحين. حيث ثقافة تعزز حب العمل والحرص على إتقانه، وتكرم العلم والعلماء، وتشجع على طلبه والسعي إليه، وتقوى أواصر التعاون وعرى التضامن، وتنمي قيم الإيثار والسّخاء، والتسامح والتعاطف بين قمة المجتمع وقاعدته، وعلى صعيد جميع الفئات الاجتماعية، لتذوب كلها ضمن طبقة اجتماعية واحدة، يسودها مشاعر الإخاء ومظاهر الرخاء، وهذا قليل من كثير، وكله ينم عن تأكيد قيمة الوعي العلمي، والعمل به في واقع الحياة، وفلسفة حياة تأخذ بعين الاعتبار هذا المبدأ؛ تعممه وتكرسه في جميع القطاعات، أهلا لأن تحظى بالانجذاب والإقبال.

---

1 هاشم صالح: من الحداثة إلى العولمة، رحلة في الفكر الغربي ..وأثرها في الفكر العربي، كتاب العربية، الرياض، الطبعة الاولى، 2010، ص 265.
2 هاشم صالح، المرجع السابق، ص 272.

- **بعد الملموسية،** توفير "القدوة النموذج" ما يعني تحويل الكلام إلى عمل وانجاز، وان صغر حجمه، توفير "روح الرسالية"، ما يعني تحويل النتائج إلى حقائق، عبر المجهود الشاق، والمنهجية الصارمة.

تناسب الأدوار وشاغليها، أمر لا مفر منه؛

فهناك من العمال والموظفين وحتى بعض المسؤولين، في جميع القطاعات دون استثناء، من هم ليسوا براضين عن أوضاع مزاولتهم للعمل فيها، وفي مقابل ذلك، نجد أن هناك من يشغلون وظائف ومناصب عمل ليسوا أهلا لها، فهذا الاستياء والامتعاض لدى هؤلاء وهؤلاء، بسبب ضعف مستوى التأهيل أو انعدامه، من شأنه أن يجعل من علاقة العامل ومهنته علاقة ميكانيكية آلية بحتة، لا ترقى إلى نمط العلاقة العضوية الحميمية؛ التي تستدعي التفاؤل وتحريك استعدادات الإخلاص والإتقان والمثابرة والتفنن في الأداء ومن ثم تحقيق الإبداع فيه.

فالمتعة هنا حتما ستكون مفقودة، وطالما هي كذلك، فلا أمل في تغيير الأوضاع إلى نحو أفضل. ومن ثم فعلى علم اجتماع التفاؤل، بمناهجه وطرائقه في البحث، أن يستبدل أحجار لعبة الشطرنج هذه، حتى تتغير الأوضاع وتشغل مكانها نحو الجودة العالمية، فالدعوى إلى التحسيس للقيام بذلك، تحمل في طياتها كثيرا من الأمل والتفاؤل.

وبعيدا عن الموهبة والميول والمهارات الفنية الفطرية؛ فكذلك الألفة بين العامل ومهنته، تزداد وتتوثق مع طول الخبرة، كما تنتعش مع التدريب والرسكلة باستمرار، وقد تصل إلى درجة الرغبة في العطاء والإبداع، إن وجد ما يُطّعمها من العوامل المحفزة معنويا وماديا كالتفاؤل وحب العمل والموهبة. ولهذا لا يجب الاستغناء عمّن طالت خبرتهم بالعمل، لاسيما المتقاعدين النجباء، إذ يمكن استثمارهم فيما يدعم العمل الإشرافي، والخدمات التوجيهية للأجيال الجديدة من العمال.

الأورغنوميا كآلية لتحقيق التنمية المستدامة في المؤسسة الاقتصادية؛

تعرف التنمية باختصار، سواء بشرية كانت، أو مستدامة – مع إضافة الجوانب المادية والبيئية – بأنها عملية متكاملة لا يمكن بترها عن بعض أجزائها، فهي كالجسم المتكامل؛ الذي يؤدي وظائفه بكفاءة، تحقيقا لنموه وسلامته وتطوره. وكذا حال التنمية التي يجب أن تقوم على مبدأ المصلحة العامة والمشتركة، ولن يكون هذا إلاّ في حال توفر معطى معرفي نموذجي، يتصف بالكمال والانسجام والعالمية والموضوعية والإنسانية. وبهذا فهي: «تغيير إنساني مقصود، يتم وفق إستراتيجية مدروسة ومشروطة؛ تؤسس على خلفية توجيهية نظرية، تمثل فلسفة التصور الاجتماعي للحياة والوجود والكيان الذاتي للأفراد والجماعات والمجتمعات، وتعكس من الناحية المادية جملة الوسائل والأدوات المستخدمة في استحداث مظاهر التغيير والتحويل، المتسم بالشمول والتكامل والاستقرار والديمومة، أي الاستمرار في النمو المتوازن في إطار المحافظة

على توازنات المحيط بكل مجالاته، تحقيقا لضمان الحقوق المتعلقة بالعيش الكريم، والرفاهية الرغيدة للأجيال الحاضرة والقادمة على السواء».[1]

ضمن هذا الإطار، يشير جون بودريار، إلى وجود علاقة بين الحركية الاجتماعية والتكنولوجيا والاستهلاك. فالتكنولوجيا تشملها عملية الاستهلاك، والتقدم التكنولوجي يقود إلى التقدم الاجتماعي، لكنه يرتبط من ناحية أخرى بالصحة العامة، من حيث أنه يؤثر عليها، وهنا نرى كيف يمكن للتقنية نفسها، أن تقع ضمن دائرة الاستهلاك من خلال الممارسة اليومية "الممارسة الكلية للتقنية"، ما يعني أهمية تنمية الموارد البشرية الملازمة للتكنولوجيا العصرية ومنتجاتها الحديثة، ليس فحسب على مستوى الأنساق الصناعية، بل أيضا داخل المجتمعات المحلية. فالتكنولوجيا في تواصل وتفاعل مستمرين مع شريحة العمال، وهي أيضا عبر منتجاتها المختلفة في تواصل وتفاعل دائمين مع المستهلك داخل الأنساق المحلية، ومن ثم باتت الضرورة الملحة في أهمية التأهيل والتوجيه الرشيد، نحو الكيفيات الأمن في التعامل مع إحدى أبرز خصائص العصر؛ على النحو الذي يتيح فرصة النّجاة، من الأخطار السلبية المتوقعة على الصحة العامة، ما يقتضي ضرورة التنبيه إلى أهمية التعليم والتدريب المتجددين، بحسب تجدد وتطور التكنولوجيا والاستهلاك في مجال التقنيات"[2]

"ترتبط الارغونوميا في المؤسسات[3] بإحراز القدر الأوفر من السلامة والأمن، ما يعني تحقيق الفاعلية والأريحية في العمل، أي خلق الوضعية المثالية للأداء الوظيفي،...الاستثمار في الارغونوميا يعني خلق الإنتاجية. إن الهدف الأساسي للارغونوميا هو تحسين مستوى الأريحية للمُسّير، وتجنيبه كل حوادث الإصابة، مع توفير الظروف العملية الأفضل للمُسّيرين؛ فإن الإنتاج المضمون يشكل خطوة أساسية يتوقف عليها إنتاج دون تبذير. كما "يشكل الحوار مع الأطراف، ذوي العلاقة بمحيط ومجال التنمية الاقتصادية، معيارا أساسيا وثابتا في فلسفة التنمية المستدامة على الصعيد الجزئي على الأقل، وإذا كانت هذه الأطراف تمثل شريكا حيويا متفاعلا بشكل دوري وشبه مستمر مع المؤسسة؛ فإن مجتمع المؤسسة نفسه والتي تشكل شريحة العمال فيه السواد الأعظم؛ لا يمكن استثناؤه من ضمن دائرة (الأطراف) هذه، حيث ينسحب عليه الكلام ذاته، لكونه الفاعل الأساس بمقتضاها (أي البيئة المستدامة) وبواسطته (أي العامل) تتحقق أهداف التنمية المستدامة في المحيط العام. يقتضي الأمر إثارة هذه النقطة؛ من منطلق معالجة بعض من معايير الايزو المتعلقة بالتنمية المستدامة في المؤسسة الاقتصادية، والتي تتناول آليات التطبيق والاعتماد، كنظام الحماية الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك تفعيل دور الإعلام البيئي والاتصال التحسيسي داخل البيئة؛ فيما بين أطرافها ذوي العلاقة بالمحيط، ضمانا للسلامة المهنية وتحفيزا على الإنتاجية في غير مضرة للإنسانية، في إطار مراعاة حقوق الإنسان بصفة عامة" [4]. دون إغفال أهمية تشجيع اعتماد أسلوب التدقيق الاجتماعي الداخلي بالمؤسسة الإنتاجية، حيث يسمح بالوقوف على أدق التفاصيل

1 نادية سعيد عيشور: المرجع السابق، ص 98.

2Jean Baudrillard, (2008), **la société de consommation**, folio essais, France, p : 217-218

3www.conteyor.com/.../l’**ergonomie**-dans-les-**entreprises**

4انظر: **التوجه نحو الإعلام البيئي إلى الاتصال المسؤول في إطار التنمية المستدامة لدى المؤسسة الاقتصادية**"، مجلة جامعة محمد لمين دباغين- سطيف 2، العدد 19، دورة ديسمبر 2014.

والمؤشرات، المتعلقة بالعوامل والأسباب، التي قد تؤثر إيجابا أو سلبا على فاعلية الفاعل (المّيسُر والعامل) ومستوى الإنتاجية تدنيا أو ارتفاعا تبعا لذلك.

وبالنظر إلى المؤسسات الاقتصادية الجزائرية، وبالرجوع إلى أهم النتائج التي توصلت إليها بعض الدراسات السوسيولوجية والاقتصادية، على مستوى مذكرات الماجستير وأطروحات الدكتوراه، التي قمنا بالإشراف عليها أو مناقشتها على مدى أكثر من عشر سنوات؛ فإن مستوى الجودة لا يزال متدنيا جدا، رغم المحاولات الجادة في اعتماد فلسفة الجودة الشاملة من قبل سياسة المؤسسات، ومحاولة تطبيق معايير الجودة العالمية تحقيقا للمنافسة العالمية، لاسيما في المؤسسات الصناعية (كمصنع الاسمنت بعين لكبيرة- بسطيف، ومصنع النسيج تندال في المسيلة، وطب العمل ف ي المؤسسات الاقتصادية - المنطقة الصناعية- الصناعات البلاستيكية- بعين الطريق- سطيف، ومؤسسة الطفل والأم، مركز مكافحة السرطان بمنطقة الباز - بسطيف وغيرها على سبيل المثال)، ولهذا أسباب عديدة (تم ذكرها فيما سبق ونكررها للفائدة) أهمها: سيادة بل سيطرة نسق الثقافة التنظيمية التقليدية داخل المؤسسة العصرية، تلك التي يقوم نسق العلاقات فيها على أساس الاعتبارات الجهوية والعرقية والقرابية والأيديولوجية، وتمّحي في ضوئها، مبادئ الاستحقاق على أساس الكفاءة والقدرات والمهارات والطاقات الإبداعية، التي تتطلبها جودة العملية الإنتاجية، وتقتضيها فلسفة التغيير نحو التحسين، تمكينا لامتلاك الميزة التنافسية، إضافة إلى ضعف الاعتماد على تكنولوجيات متطورة جديدة آمنة ونظيفة، تمنع التلوث وتحول دون تعرض حياة المُسّيرين والعمال إلى أشكال الإصابة بالخطر، وتتسبب في تقليل حدوث الخطأ؛ ما يعني قلة حظوظ المُسّيرين والعمال في التمتع ببيئة عمل مثالية، ذات أريحية تساعد وتدفع بهم إلى تنمية مشاعرهم الايجابية نحو المؤسسة بل تقوية اعتزازهم بالانتماء إليها، وتحمسهم إلى إتقان العمل، وبالتالي تحسين الإنتاجية بالمؤسسة والعمل تحسين سمعتها، وهذا لم نقف عليه إلّا في مؤسستين وطنيتين هما: مؤسسات سوناطراك بمنطقة الحاسي- سطيف، يتمتع العمال بمستويات انجاز عالية مردها إلى حالة التفاؤل والولاء للمؤسسة بفعل الحوافز المختلفة، كما لوحظ أيضا قدرا لا بأس به من الاهتمام بتوفير أفضل الظروف للعمال في مؤسسة كوندور - برج بوعريريج، حيث يتم اعتماد نظام الإدارة الالكترونية، وما تؤمنه من وسائل صحية وشفافية عبر التواصل والإعلام الالكتروني، ومنه توسيع رقعة المشاركة في مجتمع المؤسسة، ورفع درجة الولاء والمردودية.

خــــاتمة

في ختام هذا المقال، لنا أن نتساءل عن مقدار أهمية علم اجتماع التفاؤل بالنسبة للتكوين الأكاديمي للنشء في العالم العربي؟ وفيما يمكن أن يتجلى دوره في تحسين أوضاع مؤسساته المجتمعية وتطبيق معايير الجودة في الحياة؟ كما لنا أن نبحث عن مجال استثماره في تنمية الهوية التنظيمية والولاء التنظيمي والمؤسساتي بصفة عامة، حيث يعد الأساس في تقرير مصير حركية الدافعية نحو الانجاز وتخليص العقل من شوائب السلبية والإحباط وعدم الثقة بالنفس وبالمحيط. أتصور أننا بأمس الحاجة إلى التأسيس لثقافة التنشئة الأكاديمية في المجتمعات العربية، وتفعيل دورها وتكريس آلياتها عبر جميع مؤسساتها الرسمية وغير الرسمية:

- ✓ **الآلية الأولى**: التأسيس الأكاديمي لفرع علم اجتماع التفاؤل - التأكيد على أهمية الثقافة الموازية.
- ✓ **الآلية الثانية**: إدراج مقياس أو مادة علمية تهتم بالتصحيح التاريخي العلمي للوطن- وإبراز مصادر قوة الحضارة العربية ودورها عبر التاريخ، والتعريف بإمكانيات الوطن المتاحة- وبعث الثقة وتعزيز الهوية بالذات، وكذلك إدراج مقياس يهتم بالتربية الأخلاقية وتهذيب السلوك الإنساني والارتقاء به نحو مصاف الكمال الحضاري.
- ✓ **الآلية الثالثة:** إدارة الانطباع حول الذات وإمكانات المؤسسات في حدود ما هو متوفر، والعمل على نشر ثقافة التفاؤل وتعزيز مصادره الذاتية والموضوعية
- ✓ **الآلية الرابعة:** التحسيس والوعي بالذات عبر مؤسسات الإعلام ودور العبادة
- ✓ **الآلية الخامسة:** تحقيق أهداف التنمية المستدامة على الصعيد الوطني والبحثي، تماشيا والأهداف المسطرة ضمن برنامج ميثاق الأمم المتحدة، ما يعني إمكانية تحقيق قدرا أكبر من التحسن في حياة المواطنين، مع الاهتمام بتطوير الارغنوميا كفرع علمي يهتم بتحسين وضعية العمال الصحية والنفسية.
- ✓ **الآلية السادسة:** تشجيع العمل المدني والعمل الطوعي والخيري. ومنه إذكاء أهمية ودور المسوغات الدينية والاجتماعية لتعزيز بعد العمل التضامني أو تفعيل دور العمليات البناءة في علم الاجتماع.
- ✓ **الآلية السابعة:** توظيف المسوغات الدينية والثقافية للتشجيع على عملية التفاؤل، ومنه رفع الشعارات الآتية:
  - التفاؤل يغلب التشاؤم "تفاءلوا خيرا تجدوه"
  - العلم صدقة جارية
  - التغيير يبدأ من الذات، وينبثق من الإرادة "لا يغير الله قوما حتى يغيروا ما بأنّفسهم"
  - العلم نور والجهل ضلال.
  - إن لم تشغل فراغك بفعل الخيرات شغلتك السيئات بإتيانها
  - عدوى الخير مأجورة "الدّال على الخير كفاعله"
  - المشاركة في الحياة العامة يعني التوازن في الشخصية وصحتها
  - المشاركة في معركة التشييد والبناء تبدأ من هنا "إتقان العمل"
  - دوام الحال من المحال "وتلك الأيام نداولها بين النّاس"
  - إثبات وتأكيد الذات لدى الباحث يعزز الثقة بالنفس
  - الإحسان مفتاح السعادة، إسعاد الآخرين ينقل عدوى مشاعر السعادة والفرح والرضا إلى الذات "التغذية الرجعية".
  - انتزاع الاحترام والتقدير الاجتماعي بفعل العمل والحرص على إتقانه؛ يعني القوة والصلابة والتميز والهيبة والبطولة.

قائمة المراجع:

1. أنتوني غيدينز حول **علم الاجتماع**، ترجمة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الرابعة، بيروت، 2005.

2. رث والاس، السن وولف: **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، تمدد آفاق النظرية السوسيولوجية**، ترجمة: محمد عبد الكريم الحوراني، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، 2012.
3. فيليب كابان. جان فرانسوا دورتيه: **علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون الاجتماعية، إعلام وتواريخ وتيارات**، ترجمة إياس حسن، دمشق، دار الفرقد، الطبعة الأولى، 2010.
4. كريغ كالهون: **النظرية الاجتماعية النقدية، ثقافة الاختلاف، وتاريخه، وتحديه**، ترجمة مروان سعد الدين، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ديسمبر 2013.
5. مجلة جامعة محمد لمين دباغين- سطيف 2، العدد 19، دورة ديسمبر 2014.
6. مصطفى خلف عبد الجواد: **نظرية علم الاجتماع المعاصر**، الطبعة الأولى، عمان، دار الشروق، 2009.
7. هاشم صالح: **من الحداثة إلى العولمة، رحلة في الفكر الغربي ..وأثرها في الفكر العربي**، كتاب العربية، الرياض، الطبعة الأولى، 2010.
8. شادية علي قناوي: **سوسيولوجيا المشكلات الاجتماعية، وأزمة علم الاجتماع المعاصر**، الطبعة الأولى، القاهرة، دار قباء للنشر والتوزيع، 2000.
9. يان سبورك: **أي مستقبل لعلم الاجتماع؟ في سبيل البحث عن معنى وفهم العالم الاجتماعي**، ترجمة حسن منصور الحاج، الطبعة الأولى، كلمة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية، 2009.

1. Jean Baudrillard : **la Société de Consommation**, folio essais, Denoël, France, 1970.
2. Vincent Plauchu **: Mesure et amélioration des Performances industrielles**, tome 2, office des publications universitaires, Univ-Pierre Mendès, Grenoble, France, 2006.
3. Serge Bosc **: Sociologie des classes moyennes**, la découverte, paris, 2008.
4. Louise Lemire Gaétan martel: **l’approche systémique de la gestion des ressources humaines**, Préface de Laurent Bélanger**,** Presses de l’Université du Québec, 2007, p. 14